دولة الرُستميين

أصحاب تاهرت

أول دولة فارسية تأسست فى الإسلام هى دولة « الرستميين » أصحاب « تاهرت » بعمالة وهران الحالية . فلقد أسس هذه الامارة عبد الرحمن بن رستم الفارسى سنة أربع وأربعين ومائة .

وقد اختُلِفَ فى رستم هذا : هل هو رستم قائد القادسية ، أو هو رستم آخر جعله ياقوت الحموى ينسب لأبيه بهرام مولى عثمان . والأقرب إلى المعتاد من الأعمار أنه ليس ابنا لرستم قائد القادسية(١) وأن نسبته إلى بهرام هذا ليس فيها ما يستبعد(٢) .

أما ابن خلدون فإنه لم يزد على أن قال فى حق هذه النسبة : « عبد الرحمن بن رستم وهو من أبناء رستم أمير فارس بالقادسية(٣) . ومهما يكن فقد اختلف فى « رستم » هذا ولكنه لم يختلف فى كون عبد الرحمن ابن رجل يدعى « رستم » وأنه فارسى الأصل . .

---

(١) لأن « رستم » قتل سنة ١٦ وتوفى عبد الرحمن سنة ١٦٨ فيكون قد عمر مائة وبضعا وخمسين سنة ولم يذكر هذا احد من المؤرخين .

(٢) معجم البلدان فى كلامه على « تاهرت » وفيه يرتفع بنسب بهرام فيقول : هو ابن بهرام بن جور بن شابور بن باذان بن شابور ذى الأكتاف ملك الفرس . وبنحو هذه النسبة يأتى البكرى فى معجمه عند كلامه كذلك على « تاهرت » ، ولكن المستشرق «زامباور» يعلق على ذلك فى كتابه «معجم الانساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى » بقوله : « نسب خرافى » .

(٣) تاريخ ابن خلدون الجزء السادس ص ١١٢ .

ونحن لا تهمنا صحة هذا النسب بقدر ما يهمنا أن عبد الرحمن هذا اعتقد أو اعتقد الناس على عهده أنه فارسى ، فكان من جراء ذلك أن قصدته جماعات الفرس من الشرق وأنه اعتمد عليهم ، ثم بنوه فى تدبير شؤون الدولة ، مثل ما فعل المولى إدريس بن إدريس — فيما بعد — فاعتمد على العرب الذين قصدوه لعروبته فكان لهم شأن فى تصريف شئون الدولة .

والرواية فى منشأ إتيان عبد الرحمن إلى المغرب تختلف ، فابن خلدون يقول : إنه أتى مع العرب الفاتحين لأنه كان من مسلمة الفتح[١] أما غيره فيقول : إن أمه تزوجها رجل من القيروان بعد ما توفى أبوه عنها فى الحجاز وإن هذا الرجل القيروانى رجع بزوجته إلى مدينته القيروان ومعها الطفل عبد الرحمن[٢] .

فى التاريخ الذى أتى فيه عبد الرحمن إلى المغرب كان شمال إفريقية يغلى فيه مرجل الخارجية من صفرية وإباضية وكانت المعارك الحربية بدأ يشتد أوارها على عهد هشام بن عبد الملك الأموى . ثم كان أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى الإباضى قطب الدائرة الذى تدور عليه هذه المعارك والحروب ، وكانت قبيلة « ورفجومة » لما تغلبت على حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب[٣] ابن أبى عبدة (أو عبيدة) بن عقبة الفاتح ، واحتلت القيروان بقيادة عاصم بن جميل — قتلت كل من وجدته فى القيروان من قريش واستباحتها واستهانت بمساجدها فربطت الدواب بها وخربتها فاشتد البلاء على أهل القيروان[٤] ، وقد خلف عليها عاصم عبد الملك بن أبى الجعد اليفرنى .

---

(١) يقول فى الجزء السادس من تاريخه ص ١٢١ « وكان عبد الرحمن بن رستم من مسلمة الفتح وهو من ولد رستم أمير الفرس بالقادسية وقدم إلى افريقية مع طوالع الفتح فكان بها » .

(٢) انظر دائرة المعارف الاسلامية (الانجليزية) فى ترجمة Abd al-Raḥmān b. Rostem .

(٣) السبب فى ذلك تجده فى ابن خلدون الجزء الرابع ص ١٩٠ وما بعدها وكتاب « الاستقصا » الجزء الأول ص ٥٢ وما بعدها من الطبعة المصرية . والبيان المغرب الجزء الأول ص ٧٦ وما بعدها ، نشر مكتبة صادر .

(٤) ابن خلدون الجزء السادس ص ١١٢ والجزء الرابع ص ١٩١ والبيان المغرب الجزء الأول ص ٨١

هذه الفعلة الشنعاء لم ترق أبا الخطاب الذى كان آنذاك بطرابلس ، لهذا توجه إلى القيروان فاحتلها بعد معارك دامية بين الإباضيين من ناحية والآخرين من ناحية عبد الملك الذى قتل فى المعركة سنة إحدى وأربعين ومائة[١] .

ولما انتصر أبو الخطاب فى تلك المعركة كانت جيوش أبى جعفر المنصور قد انتشرت فى نواحى طرابلس تطارد الخوارج الذين كان أمرهم قد استفحل وصار وجودهم يهدد ولاية العباسيين حتى بمصر . لهذا سارع المنصور فبعث لقتالهم جيشاً عرمرماً كان يقوده محمد ابن الأشعث الخزاعى[٢] وما علم بذلك أبو الخطاب حتى عقد لعبد الرحمن بن رستم على القيروان ليتفرغ لقتال ابن الأشعث بطرابلس . وبعد حروب طاحنة قتل أبو الخطاب بيد ابن الأشعث الذى سرعان ما توجه إلى القيروان فتغلب عليها وخرج منها فارا عبد الرحمن بن رستم سنة أربع وأربعين ومائة[٣] .

وفى ثلة من الأصحاب وبمشقة عظيمة[٤] استطاع عبد الرحمن أن ينجو بنفسه ويصل بجماعته — وفيها ابنه عبد الوهاب — إلى جبل يدعى فى كتب التاريخ باسم « سوفجاج »[٥] الذى نزل بسفحه فيما بعد ابن الأشعث محاصراً

---

(١) المرجع السالف الذكر ، على أن المسألة لم تكن بهذه البساطة ، وأن أبا الخطاب خف لنجدة أهل القيروان وتخليصهم مما حل بهم من البلاء ، وإنما كانت أكثر خطورة من ذلك ، ذلك أن هؤلاء الخوارج الذين استولوا على القيروان نسوا أنهم ثائرون على العباسيين ، وإنما ناصروا الياس أخا عبد الرحمن بعد ما اغتال أخاه وبايع لأبى العباس ، فبايعوا هم كذلك لما تغلبوا على خصمه ابن أخيه .

(٢) والى مصر وافريقية . ابن خلدون الجزء الرابع الصفحة ١٩٢ بعد ما كان هذا الوالى قد بعث لقتاله أبا الأحوص عمرو بن الأحوص العجلى سنة ١٤٢ فهزمه أبو الخطاب واستولى على عسكره فرجع مفلولا إلى مصر . الاستقصا الجزء الأول ص ٥٧ .

(٣) ابن خلدون الجزء السادس ص ١٢١ والبيان المغرب الجزء الأول ص ٨٣ وما بعدها .

(٤) انظر الجزءين ٩ و ١٠ من مجلة « لسان الدين » السنة الثامنة ودائرة المعارف الاسلامية فى ترجمته .

(٥) على أحلافه (لماية) كما يقول ابن خلدون فى الصفحة السالفة . ويقول الهلالى انه لا يعرف هذا الجبل وفى دائرة المعارف الاسلامية يذكر هكذا : (Sūf Adjdjādj)

إياه ، ولما لم يُجْدِه الحصار رجع عنه إلى القيروان . ومن ثم صارت فلول الاباضية تتكاثر على الجبل الذى كانوا فيه يتدربون على القتال ويستعدون لخوض المعارك التى ستواجههم . ولما تكاثر جمعهم فكروا فى إقامة رجل عليهم يقوم بأمرهم . وبعد مداولة فى ذلك أقاموا عليهم عبد الرحمن حيث أن المصلحة اقتضته ، إذ كان من الناحية الثقافية الدينية على حظ عظيم ناله من مدرسة البصرة الاباضية التى كان قد توجه إليها فى عهد أستاذها أبى عبيد الله مسلم الذى كان قد أرسله مع أربعة من رجاله للدعوة لمذهبهم[١] ، وكان من الناحية الإدارية بتلك الخبرة التى مارس بها شؤون القيروان لما كان واليا عليها ، ثم من ناحية أخرى كان فريدا بين البربر لا قبيلة تحميه إذا ما ظهر عدم صلاحيته ونحى عن إمارته (وهذه مسألة كان البربر كثيراً ما تهمهم[٢]) لهذا بايع القوم عبد الرحمن الفارسي لأنهم — كما هو معلوم — خوارج لا يشترطون من ناحية النسب قرشية ولا غيرها .

لما بويع عبد الرحمن فكر فى إقامة مملكة على نحو تلك المملكة التى سبق أن أقامها الخوارج الصفرية بالجنوب الغربى سنة ١٤٠ ، فكان عليه أن يبحث عن مكان يبنى فيه مقر حكمه كما فعل المكناسيون الصفرية إذ بنوا عاصمتهم « سجلماسة »[٣] ، فتوجه الى ناحية الغرب حيث يبتعد عن خطر جيوش العباسيين

---

(١) انظر مقال الدكتور « فروخى » الذى نشره فى المجلة الإسلامية : The Islamic Review ابريل ٥٢ السالف وأبو عبيد الله هذا هو مسلم بن أبى كريمة التيمى مات أيام المنصور . دائرة المعارف الاسلامية مادة : « Ibāḍites » .

(٢) وكانت من أهم الأسباب التى مهدت فيما بعد لقيام الدولة الادريسية بالمغرب . وكان بجانب عبد الرحمن كثير من زعماء البربر ولكنهم رجعوا إلى طرابلس بعد البيعة واستمروا فى مقاومة الولاة بافريقية . أما الرجال الأربعة الذين كان أبو عبيد الله قد بعث بهم وكان خامسهم عبد الرحمن فإنهم قتلوا جميعاً فى المعارك وكان آخرهم أبو الخطاب . لهذا بقى فريداً وحده بين البربر فاجتمعت عليه كلمتهم وبايعوه أميراً عليهم .

(٣) بنوها سنة أربعين ومائة . انظر ابن خلدون الجزء السادس ص ١٣٠ والبيان المغرب الجزء الأول ص ٢١٥ وما بعدها .

الذين لم ينقطعوا عن مضايقة جماعته ، لهذا توجه هو وأصحابه إلى الغرب حتى انتهوا الى « تاهرت » القديمة التى كان قومها مستضعفين من مراسة وصنهاجة لا يخشى من جانبهم شر يصيبهم ، ولم يمكثوا طويلا حتى حصل الاتفاق مع هؤلاء على أن ينزلوا عن مساحة من بلادهم يتولى فيها عبد الرحمن بناء عاصمته على شروط ارتضاها الطرفان[١] .

وبذلك شرع عبد الرحمن فى بناء مدينته التى كانت تبعد عن تاهرت القديمة بنحو خمسة أميال — وهذه كانت فى مكان مدينة « تيارت » Tiaret الحالية[٢] — فخط مدينته وبنى فى وسطها المسجد الجامع ثم استمرت أعمال التعمير والتنظيم تسير فى طريقها . وما تم تخطيط المدينة حتى صارت أنباؤها تصل الى الشرق فصارت الاباضية تقصد اليها من جنوب الجزيرة العربية والعراق وفارس ومصر حيث كانت قبضة العباسيين تأخذ بتلابيبهم[٣] .

لقد نشطت حركات الهجرة الى هذه المدينة ، وصار المهاجرون والتجار يبنون فيها بيوتهم وقصورهم ومتاجرهم ولم تقف حركة هذا النشاط عند الاباضية ، وإنما صرنا نجد فرقا أخرى من المعتزلة — الذين كانت جماعتهم الواصلية آنذاك قد تكاثرت فى البلاد — تساهم فى هذا النشاط بقسط كبير ، فبنوا المنازل والمساجد كما بنى أهل السنة كذلك منازلهم ومساجدهم ، وصارت « تاهرت » تدعى

---

(١) انظر البكرى ومعجم البلدان لياقوت عند كلامهما على تاهرت .

(٢) أسس هذه المدينة الفرنسيون . تاريخ الجزائر لمبارك الهلالى الجزء الثانى ص ٣٨ . أما المدينة الرستمية فلم يبق لها إلا بعض الآثار التى كان يقيم بينها الأمير عبد القادر الجزائرى من سنة ١٨٣٥ إلى سنة ١٨٤١ « Ch.-André Julien » فى كتابه « Histoire de L'Afrique du Nord » p. 35 .

(٣) راجع ما كتبناه فى العددين السابقين من « مجلة لسان الدين » تحت عنوان « صلة المغرب بفارس » ودائرة المعارف الاسلامية ترجمة عبد الرحمن وابنه عبد الوهاب وكتاب : « Ch.-André Julien » فى كتابه السالف الذكر ص ٣٣ وما بعدها .

عراق المغرب وبلخ المغرب . أما المتاجر فكان أهل فارس هم المتزعمين لحركاتها ، ويشاركهم المصريون وجماعة من إفريقية[١] .

لقد انتهى عبد الرحمن من تأسيس المدينة التى كانت كرسى حكمه . ولكن ليس معنى هذا أن مسألة الصراع بينه وبين ولاة افريقية قد انتهت ، بل إن أولئك الاباضيين الذين كانوا قد اتحدوا مع الصفرية لم يكونوا ليضعوا السلاح . ولذلك فقد بقيت جماعتهم خارج العاصمتين « تاهرت » و « سجلماسة » تخوض المعارك والحروب ضد ولاة العباسيين بالشمال الإفريقى ، وبقى شطر عظيم من الاباضية معتصمين بجبل نفوسة ، وقد انضموا إلى رئيسهم عمر الذى بايعوه بعد مقتل أبى الخطاب سنة ١٤٤ ، وظل إماما لهم عشر سنوات إلى أن توفى سنة ١٥٤ ، كانوا فى أثنائها كثيراً ما يخوضون المعارك أو يضطرون لخوضها ، وكان من تلك المعارك معركة تهيأ لها هؤلاء الخوارج الصفرية والاباضية ، واضطر عبد الرحمن ابن رستم أن يخوض معهم غمارها ضد الوالى عمر بن حفص المهلبى .

ذلك أن الصفرية كانوا قد خرجوا على الأغلب بن سالم — جد الأغالبة — وبايعوا زعيمهم أبا قرة بن دوناس اليفرنى (صاحب تلمسان) فزحف عليهم الأغلب بمجموعه إلى تلمسان ، ففر هذا إلى طنجة . إلا أن الأغلب أصيب بعد ذلك فى إحدى المعارك بسهم أرداه قتيلا . فلما علم بذلك المنصور وجه مكانه عمر بن حفص الملقب بـ « هزارمرد » سنة إحدى وخمسين ومائة فاستقام له الأمر برهة من الزمن . غير أنه ما غادر القيروان وخرج لإدارة السور على طبنة ، حتى انتهز الفرصة اباضية طرابلس ، وتجمعوا من كل جهة وولوا عليهم إماما أبا حاتم يعقوب بن لبيب المغيلى ، بعد ما توفى إمامهم عمر

---

(١) وكان الأمير عبد الوهاب بن عبد الرحمن يضرب بسهم وافر فى هذه التجارة فأصاب منها ثروة عظيمة ؛ دائرة المعارف الاسلامية عند ترجمته .

سنة ١٥٤[١] ، وقدر هؤلاء القوم أن معركتهم التى سيخوضونها ستكون معركة فاصلة . لهذا ضموا إليهم الصفرية ، وكونوا منهم جيوشاً حافلة تضم اثنى عشر عسكراً «كان منهم أبو قرة فى أربعين ألفاً من الصفرية ، وعبد الرحمن بن رستم فى ستة آلاف من الاباضية والمسور بن هانىء فى عشرة آلاف كذلك ، وجرير ابن مسعود فيمن تبعه من مديونة ، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجى فى الفين منهم من الصفرية»[٢] ، وحاصروا عمر بمدينة « طبنة » ، ولكنه لما رأى الخطر محدقاً به عمل الحيلة مع رؤساء القوم واستطاع بها أن يفك الحصار عنه[٣] ، ثم إنه سرعان ما وجه الضربة إلى جيش عبد الرحمن بن رستم الذى لم يصمد لرجاله طويلا ، فانهزم عنه فى فلوله إلى « تاهرت » . و بنشوة هذا الانتصار توجه عمر إلى قتال باقى الخوارج الذين تجمعوا حول أبى حاتم[٤] ، فكون منهم جيشاً عظيما يعده المؤرخون بخمسين وثلاثمائة ألف ، حارب به أبو حاتم الاباضى عمر المهلبى ، وحاصره بمدينة القيروان حصاراً شديداً وصل إلى علم المنصور فاهتم له وأرسل إليه يزيد بن حاتم بن قبيصة المهلبى الذى أنف عمر من نصرته وفضل عليها الموت[٥] ، لهذا خرج للقاء أبى حاتم فقاتله قتالا مريراً انتهى بقتله سنة أربع وخمسين ومائة ، وبمصالحة أهل القيروان أبا حاتم على ما يرضيه ، فرجع

---

(١) الاستقصا الجزء الأول ص ٥٧ وما بعدها والبيان المغرب الجزء الأول ص ٨٨ وما بعدها ، وابن خلدون يجعل يعقوب هذا ابنا لحبيب بن مرين بن يطوفت ، ويكنيه أيضاً بأبى قادم الجزء السادس ص ١١٢ ، وانظر دائرة المعارف الاسلامية فى ترجمة : « Abu Ḥātim Ya'ḳūb b. Ḥabīb al Malzūzī »

(٢) النص من ابن خلدون الصفحة السابقة ، وفى ابن الأثير الجزء الخامس ص ٥٨ طبعة Brill أن عبد الرحمن كان فى ١٥٠٠٠ ، ونحوه فى المغرب ، وعاصم السدراتى فى ٦٠٠٠ وأبو حاتم فى عسكر كثير .

(٣) فأرسل إلى أبى قرة يبذل له ٦٠٠٠٠ درهم فلم يجبه ثم دفع إلى أخيه ٤٠٠٠ وثياباً فأجابه وارتحل من ليلته وتبعه العسكر منصرفين فاضطر أبو قرة إلى اتباعهم . ابن الأثير الجزء الخامس ص ٤٥٨ والمغرب الجزء الأول ص ٩ .

(٤) معجم الانساب والاسرات للمستشرق زامباور يجعل مبايعته سنة ١٥٤ أى فى نفس السنة التى قتل فيها عمر بن حفص .

(٥) الاستقصا الجزء الأول ص ٥٨ والمغرب الجزء الأول ص ٩٠ .

عنهم وتوجه إلى لقاء يزيد الذى وصل آنذاك إلى نواحى طرابلس ، وبعد حروب شديدة دارت رحاها بين الطرفين قتل أبو حاتم سنة ١٥٥[١] .

بعد هذه المعركة انهزم الخوارج وتشتت شملهم فى البلاد ، إلا أن أولئك الذين فقدوا إمامهم أبا حاتم أجمعوا على أن يبايعوا عبد الرحمن بالإمامة ، فبايعوه بها سنة ستين ومائة ، فتقوى بهم عبد الرحمن واتسع سلطانه بين القبائل العديدة وعلى رأسها « نفوسة » ، وزاد نفوذه بينهم لدرجة أننا لم نجده فيما بعد يتعرض لحرب من الحروب[٢] .

لما استقر أمر عبد الرحمن على هذه الصورة ، وجدناه يحاول أن يربط صلاته بأمراء « سجلماسة » ، فكان من أثر ذلك تلك المصاهرة التى انعقدت بينه وبين اليسع بن أبى القاسم ابن واسول الذى أصهر له بابنه مدرار فى ابنته

---

(١) المستشرق زامباور يجعل موته حول سنة ١٦٠ واعتماده فى ذلك على كتاب :
René Basset, «Les Sanctuaires du Djebel Nafousa (J. As. Mai-Juin, 1899, P. 423).

(٢) تاريخ الجزائر ص ٢٢ و ٣٣ ودائرة المعارف الاسلامية فى ترجمة عبد الرحمن هذا . كان عبد الرحمن قد بويع سنة أربع وأربعين ومائة بالامارة ، ولم تكن إمارته هذه كما رأينا شاملة لجميع الاباضيين الذين كانوا منتشرين فى الشمال الافريقى ، بل ظلت جماعات خارج سلطانه تضرب فى البلاد طولا وعرضاً منها من انضوى تحت لواء أمير من الأمراء مثل أباضية نفوسة ولكن فى سنة ١٦٠ انضمت هذه إلى عبد الرحمن فتقلد حكمها من قبل الرستميين السمح بن أبى الخطاب سنة ١٦٠ ، كما فى معجم الانساب للمستشرق زامباور ، ومنها من آثرت السلامة فكانت تخضع للولاة مثل الأغالبة ، ومنها من امتزج مع الصفرية المكناسيين أصحاب «سجلماسة» ، وكان من أمراء هؤلاء من تزعم الاباضية والصفرية ، فابن خلدون يذكر فى الجزء السادس من كتابه ص ١٣٠ أن أبا القاسم سمكو بن واسول بن مصلاة الذى توفى سنة ستين ومائة كان اباضياً صفرياً وانه — زيادة على ذلك — خطب فى عمله للمنصور والمهدى من بنى العباس . ومعنى هذا أن موقف هؤلاء لم يكن دائماً معادياً للخلافة ببغداد ، بل اننا وجدنا فيما قبل أن أمير ورفجومة عاصم بن جميل الاباضى الذى تبعه يزيد بن سكوم أمير ولهاصة كان يدعو هو وصاحبه لأبى جعفر المنصور كما يذكر ذلك ابن خلدون فى الجزء السادس من كتابه ص ١١٢ . لهذا كان خروج البربر على الخلافة — فى الحقيقة — بدافع الظلم والطغيان كما حصل فى الثورة التى قادها «كسيلة المسلم» بعد ما حارب فى صفوف المسلمين ، وكما حدث فى عهد عبد الملك حينما ثار القوم على يزيد بن أبى مسلم مولى الحجاج ، وكما حدث فى عهد هشام حينما ثاروا على عبد الله بن الحبحاب .

أروى فأنكحه إياها[١] ، وبذلك ازدادت علاقة المملكتين متانة وقوة ، وصارت أروى يقوى نفوذها فى إمارة سجلماسة ، خصوصاً بعد ما توفى اليسع وبويع ابنه مدرار[٢].

وبالجملة فإن عبد الرحمن بحسن سياسته ، وبفضل سلوكه الشخصى وتقشفه فى ملبسه ومأكله ومسكنه وتواضعه للرعية واختياره لحكومته الرجال الأكفاء مكن لدولته أن تظل قوية الدعائم بعيدة عن المنازعات والاضطرابات ، وأن ينظر إليها كما كان ينظر إلى الخلافة أيام عمر ، فتألفت عليها القلوب وتجمعت فيها فرق إسلامية مختلفة النزعات والجنسيات ، فكان فيها خوارج من اباضية وصفرية كما كان فيها شيعة وسنية ومعتزلة يمثلون فيها جميعهم قبائل من البربر وعلى رأسهم زناتة ، وجماعات من الفرس والعرب المهاجرين[٣].

ولما أدركت الوفاة عبد الرحمن جعل الأمر شورى بين سبعة أشخاص إلا أنه لم يخرج — كما فعل عمر — من بينهم ابنه عبد الوهاب ، فلما توفى وتداول القوم فيما بينهم مسألة اختيار واحد من السبعة انحازت زناتة إلى عبد الوهاب لأن أمه كانت من « يفرن » فرع من زناتة ، كما انحازت إليه الفرس لهذه العصبية أيضاً ، فكانت النتيجة أن تغلبت فكرة التنصيب بالتوريث على فكرة التنصيب بالانتخاب[٤] ، وأصبح عبد الوهاب ملكاً سنة ١٦٨ ، إلا أن المعارضين لم يقفوا عند الجدل فى مسألة الأحقية فى الامامة ، وإنما شق الطاعة عليه جماعة من الاباضيه والتفوا حول زعيمهم يزيد بن فندين أحد الرجال

---

(١) ابن خلدون الجزء السادس ص ١٣١ .

(٢) المرجع السابق وكان ذلك فى أوائل القرن الثالث .

(٣) راجع كتب الجغرافية عند القدامى وما قيل فى ذلك ودائرة المعارف الاسلامية فى ترجمة عبد الرحمن وكتاب « Histoire de L'Afrique du nord » p. 33 لمؤلفه : André Juien .

(٤) انظر مقال « فروخى » وكتاب تاريخ الجزائر للهلالى الجزء الثانى ص ٣٣ وما بعدها ودائرة المعارف الاسلامية (ترجمة Abd al-Wahhāb b. ʿAbd Al-Raḥmān) .

السبعة الذى أبى من هذه البيعة ، وطالب بتأسيس مجلس من أهل الحل والعقد يعهد إليه اختيار الإمام الذى عليه أن يخضع لأوامره ، ولما رفض رأيه حمل السلاح فى وجه عبد الوهاب وشيعته ، وانضم إليه الواصلية من المعتزلة الذين رأوا كما رأى زملاؤهم الخوارج أن صنيع عبد الرحمن خروج صارخ على مبدئهم فى الإمامة ، وبذلك حصلت بين ابن فندين وبين عبد الوهاب معارك طاحنة قتل فيها ابن لعبد الوهاب ، وكان ابن فندين سينتصر فيها لولا أن التاريخ أعاد نفسه فلجأ عبد الوهاب إلى التحكيم واستمرت مهازل التاريخ ورجحت كفة عبد الوهاب وأنكر المنهزمون هؤلاء الرستميين وموقفهم إزاء عبد الوهاب وانعزلوا عن إمارتهم وسموا باسم « النكار »[١].

لقد انتصر عبد الوهاب بدهائه على خصومه ، ولكنه بقى عليه أن يخضع القبائل الثائرة التى لم تحسب لمؤامرته أى حساب وظلت شاهرة السلاح فى وجهه . وحسب الأعراف التى تسود المجتمع القبلى فإن هذه القبائل حاولت أن تتكتل فيما بينها استعداداً لخوض المعركة الحاسمة ، وذلك بربط صلاتها فيما بينها برباط المصاهرة ، فتنبه لذلك عبد الوهاب وتوسل بنفس الوسيلة ، فما كان منه إلا أن أصهر من شيخ « لواتة » وتزوج ابنته التى كان قد خطبها أمير « هوارة » فتغلب على هذه — فى حروبه ضدها — بانحياز لواتة إليه[٢].

---

(١) انظر المراجع السالفة الذكر فى الحاشية السابقة .

(٢) تاريخ الجزائر للهلالى الجزء الثانى ص ٣٤ . وهكذا كان شأن تلك القبائل الثائرة التى لا يهمها من الأشياء النظرى بقدر ما يهمها العملى منها . . أما أولئك النكار أصحاب الفكر التى أخلصوا لها فان معظمهم انحاز إلى جبال الأوراس الشهير بأحداثه قديماً وحديثاً ، وظلوا معتصمين به يتحينون الفرص إلى أن كان الغزو العبيدى ، فتجمعوا حول زعيمهم أبى اليزيد وكان منهم ما سنذكره فيما بعد نهاية الدولة الرستمية . وأما أولئك الواصلية فقد ظلوا يديرون الجدال حول مسألة الامامة كما كان شأنهم فى الشرق وبقيت جماعة منهم داخل الحكم الرستمى ، ولكن آخرين منهم كونوا لهم بعض الامارات التى نعثر عليها فى كتب الجغرافية القديمة مثل إمارة « ايزرج » بجانب « تاهرت » كما كان منهم من توجه إلى المغرب الأقصى والتف حول زعيمه المعتزلى إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الذى كان يحكم ما بين =

وبعد ما كان عبد الرحمن يختار لدولته — كما يقول مؤرخهم ابن الصغير — ذوى المقدرة والكفاءة من الرجال المتصفين بالعدل والإنصاف ، صرنا نجد عبد الوهاب لا يهمه من هذا كله إلا ما كان فيه تدعيم لدولته التى قبض على ناصيتها بكلتا اليدين ، ومع أنه كان فى عهد أبيه مثالا للرجل الصالح لدرجة أنه كان قد رشح لهذا الأمر فى عهد أبيه — كما يقال —[1] إلا أنه ما ولى الحكم وقامت فى وجهه المنازعات ثم الثورات حتى خلع عنه جلباب المثالية ، وتدرع ذلك الدرع الفولاذى الذى لا يتأثر للعواطف ولا تنفذ فيه سهام الضمير ، فتجلى على المسرح رجلا جباراً عنيداً « مكيافلى » النزعة ، لا يتريث فى ضرب الرؤوس بعضها ببعض ، ولا يتورع فى الاعتماد على سياسة « فرق تسد » ثم أنه لا يأنف من موادعة خصومه ولاة العباسيين ، فيوادع روح بن حاتم بن قبيصة المهلبى[2] سنة إحدى وسبعين ومائة ، وبذلك أمن على دولته من ولاة إفريقية ، وتخلص لجميع جيوشه وتنظيمها ، حتى اجتمع له — كما يقول ابن الصغير — من أمر الاباضية وغيرهم ما لم يجتمع لاباضى قبله ، ودان له منهم ما لم يدن لغيره ، واجتمع له من الجيوش والعدة ما لم يجتمع لأحد قبله ، فكان ملكاً ضخماً وسلطاناً قاهراً وبذلك خرج عن تلك الموادعة التى كانت بينه وبين إفريقية فوجدناه فى سنة ست وتسعين ومائة يداهم أبا العباس

= «طنجة» إلى «وليلى» بجبل «زرهون» وهو الذى سلم ولايته إلى المولى ادريس سنة اثنتين وسبعين ومائة . . على أن نفوذ المعتزلة لم يبق فى ولاية الرستميين خاملا ، وإنما صرنا فيما بعد نجد من أمراء الرستميين أنفسهم من اعتقد مذهبهم — كما فعل المأمون فى الشرق وتبعه المعتصم فمن بعده — لهذا وجدنا ابن خلدون يذكر الأمير ميمون ويصفه بأنه كان رئيساً على ثلاثين ألفاً من الواصلية ، ولو أنه كان كذلك رئيساً للاباضية والصفرية ، وهذا طبيعى — كما كان المامون نفسه ومن حذا حذوه من العباسيين — ومما تجب ملاحظته ان الاباضية «النكار» قد اختلط بهم كذلك الخوارج الصفرية لدرجة أن ابن خلدون صار ينعتهم جميعاً « بالصفرية » .

(١) تاريخ الجزائر للهلالى الجزء الثانى ص ٢٣ .

(٢) ابن خلدون الجزء الرابع ص ١٩٤ والجزء السادس ص ١١٣ ، إلا أن عبد الوهاب صحف هنا بعبد الرحمن ، والاستقصا عند كلامه على روح بن حاتم .

عبد الله ابن ابراهيم الأغلبي الأمـير ويحاصره بطرابلس ، ويستمر الحصار إلى أن يتوفى إبراهيم ويخلفه ابنه هذا ، فيضطر لفك الحصار عنه بأن يصالح عبد الوهاب على أن تكون المدينة والبحر للأغالبة وما وراء ذلك من الصحراء لعبد الوهاب . حينئذ رجع عبد الوهاب إلى نفوسة[١] ، وقد امتد سلطانه ، وانطوت تحت لوائه القبائل حتى هوارة التى كانت تحاربه أصبحت اليوم تستنجد به وتحارب معه ضد الأغالبة فصار سلطـان الرستميين يشمل صحراء طرابلس الشاسعة[٢] ، وبعد ما كان عبد الرحمن قد مد يده لبنى واسول أصحاب « سجلماسة » ليكونوا يداً واحدة على صد ما عساه أن يلحقهم من ضرر العباسيين خصومهم ، فإن عبد الوهاب قد احتاط — بالرغم من مصالحته لأبى العباس — فمد يده كذلك إلى الأمويين بالأندلس لهذه الغاية نفسها ، وبعث لقرطبة وفده لذلك ، وكان وصوله يوماً مشهوداً فى قرطبة[٣] ، كانت مملكة الأدارسة قد كونت بالمغرب الأقصى سنة اثنتين وسبعين ومائة ، وفى السنة التـالية كان المولى إدريس قد

---

(١) ابن خلدون الجزء الرابع ص ١٩٧ والجزء السادس ص ١٤١ وقد عين حاكما على نفوسة السماح بن أبى الخطـاب وكان له وزيراً كما فى دائرة المعارف الاسلامية ولكن تقدم عن زامباور هذا تولى حكم نفوسة سنة ١٦٠ فى نفس السنة التى بويع فيها عبد الرحمن بن رستم بالامامة . ويذكر فى دائرة المعارف انه بعد هذا الانتصار بعث قطن بن سلمى ليحاصر قابس .

(٢) يقول الدكتور «فروخى» كان كرسى مملكتهم يشمل أعظم جزء من ليبيا الغربية وتونس والجزائر وكانوا فى أوج عظمتهم يمتلكون طرابلس والقيروان وقابس مع منطقة جبل نفوسة وواحـة « ورجلة » . . وهو يقصد بذلك عصر عبد الوهاب لأن عظمة هذه الدولة بلغت أوجها فى عهده . انظر دائرة المعارف الاسلامية .

(٣) يؤرخ لهذه السفارة فى دائرة المعارف سنة ٢٠٧ ، ويذكر أن يوم استقبالها كان يوماً عظيما كما يذكر ذلك « ليفى » فى كتابه المذكور الجزء الأول صفحة ٢٠١ وصار من أثر ذلك أن أصبح الرستميون وزراء وحجابا وقواداً للجيوش فى حكومة عبد الرحمن الثاني يذكر منهم ابن القوطية ص ٦٢ عبد الرحمن ابن رستم . ويقول ليفى أن عبد الرحمن هذا هو الأخ أو الابن البكر لمحمد ابن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن ابن رستم ، أما محمد هذا فهو الذى ورد باسم محمد ابن وسيم — كما يستظهر ليفى — فى البيان المغرب الجزء الثـانى ص ١٢٥ و ١٣١ وكان أحد القواد العظام الذين أخضعوا الأطراف لعبد الرحمن وصدوا هزمات النورماند . وفى قدوم بنى عبد الوهاب انظر المغرب ج ٢ ص ٤٨ .

استولى على تلمسان وشارف تخوم إمارة الرستميين . ويظهر أن زناتة — بعد ما بايعه منهم عدد كبير — كانت قد سئمت تلك الحروب العديدة التى كان يخوضها بهم عبد الوهاب ، لهذا عرضت عليه أن ينضم بإمارته إلى الأدارسة ، ولكنه أبى من ذلك بشمم[١] ، وبقيت المملكتان كلتاهما مستقلة بنفسها ولم يحدثنا التاريخ عن وقوع أية حرب بينهما[٢] ، بل كانت كلتاهما تحافظ على حسن الجوار ، خصوصاً بعد ما استقل بنو سليمان أخى المولى إدريس بولاية « تلمسان » ، تلك الولاية التى كانت حاجزة بينهما[٣] ، فكانت بمثـــابة ما يسمى الآن باسم Duffer State أما أبو العباس عبد الله الأغلبى فقد آثر السلامة فلم يتعرض بعد لحرب ولم تكن فى أيامه فتنة[٤] .

لقد وجدنا إمارة الرستميين تتوسط بين الأدارسة وأصحـاب تلمسان بنى سليمان وبين الأغالبة ولاة العباسيين المستقلين فى افريقية[٥] ، كما كان بنو أمية يعتبرون هذه الإمارة شاغلة للأغالبة عنهم ، وكان الأغالبة قد مارسوا البربر فى حروبهم ضدهم فأدركوا منها ألا طاقة لهم بخضد شوكتهم ، لهذا انصرفوا عن محاربتهم وركنوا إلى إصلاح شؤونهم فى الداخل بدل أن يضيعوا مجهودهم فى الخارج بدون جدوى ثم صار اهتمامهم يتوجه إلى البحر ويخضعون بعض الجهات

---

(١) ابن خلدون الجزء ٦ ص ١٢٢ وكان أصحاب تاهرت قد سبقت لهم معرفة به حيث أنه نزل بين ظهرانيهم سنة ٦٩ كما يقول الطبرى فى تاريخه الجزء الثالث ص ٥٦٢ .

(٢) غير أن الهلالى يذكر أن زناتة حاربت الرستميين لمـــا امتنعوا . فلعل ذلك كان من تلقاء أنفسهم لأن إدريس الأكبر كان مشغولا بحرب البرغواطيين أما ابنه فلم يذكر التاريخ إلا محاربته للصفرية من الخوارج . روض القرطاس ص ١١ ط. أوبسالة .

(٣) تنازل لهم عنها ادريس الثانى وكان هذا قد دخلها سنة ٩٩ ثم غادرها سنة ١٠٢ القرطاس ص ٢٧ .

(٤) ابن خلدون الجزء الرابع ص ١٩٧ .

(٥) كان ابراهيم قد فاتح الرشيد فى إسناد ولاية افريقية إليه فاسعفه فى ذلك ثم توارثها أبناؤه وحفدته وفى أيام المامون استبدوا بالأمر . انظر ابن خلدون الجزء الرابع ص ١٩٦ وما بعدها .

التى كانت فى الجزيرة الصقلية خارجة عنهم أو ثائرة عليهم[١] ، وكان بنو العباس يقنعون من هذه الولاية بأن تظل سداً بين ولاياتهم فى الشرق وبين هذه الإمارات الخارجة عن سلطانهم ، لهذا لم يتوقفوا فى السماح لهذه الإمارة الأغلبية أن يكون لها شبه استقلال بنفسها لأنهم لم يكونوا يطلبون منها إلا أن تبقى على صداقتها معهم وأن تحول بينهم وبين هذه الإمارات كما قلنا ، فكان وجود الرستميين — والحال هذه — لازماً لحفظ التوازن بين دول المغرب . وقد سبق أن عبد الوهاب نفسه كان راغباً فى موادعة أصحاب القيروان كما كان روح كذلك راغباً فيها[٢].

كان عبد الوهاب كأبيه عالماً متضلعاً فى شؤون الدين وبذلك احتفظ بمركزه كإمام للاباضية — ما عدا النكار — وكتابه الذى ألفه فى مسائل نفوسة الجبل كان أساساً للمدرسة الاباضية الرستمية . وكان إلى جانب ذلك يشجع الحركة العلمية بالبلاد ، ويجلب الكتب من الشرق إلى « مكتبة المعصومة » التى كانت تزخر بالكتب المتعددة فى مختلف الفنون والعلوم[٣].

وبعد ما قضى عبد الوهاب أيام حكمه — وكانت زاخرة بجلائل الأعمال — توفى سنة ثمان ومائتين[٤] ، فبويع ابنه ميمون أبو سعيد الأفلح بالامامة بعده ، وكان كذلك مرشحاً للامامة فى حياة أبيه ، فلم يكن يقل عنه دهاء ومكراً ،

---

(١) ابن خلدون الجزء الرابع ص ١٩٨ إلى ٢٠٣ وتاريخ اسبانيا المسلمة ، وتاريخ الامبراطورية المغربية فى أوربا عند الكلام على عبد الرحمن الثانى .

(٢) ابن خلدون الجزء الرابع ص ١٩٤ .

(٣) تاريخ الجزائر الجزء الثانى ص ٢٨ ، وانظر مقال « فروخى » ومقالنا الذى صدر أخيراً فى مجلة Tamuda العدد الأخير ص ٥٢ .

(٤) دائرة المعارف الاسلامية فى ترجمته وعند الكلام على الرستمية ، وكتاب الأنساب لـ « زامباور » أما الهلالى فيجعلها سنة ١٨٨ .

فاستطاع بتعاليم أبيه وسياسته المتقلبة أن يقبض على زمام الملك طيلة خمسين سنة[١].

لقد سالم الأفلح جيرانه الأغالبة — بادىء ذى بدء — ولكن أبا العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم صار يفكر فى التغلب على دولته ، ووفقاً لذلك أقدم على بناء مدينة بجوار « تاهرت » وسماها « العباسية » نسبة إليه[٢] ، وذلك تأخذ بمخنق تاهرت فتوجه إليها الأفلح وأخربها سنة سبع وعشرين ومائتين[٣] .

لنلق الآن نظرة عامة على هؤلاء الأغالبة ، وموقفهم من ممالك المغرب والأندلس ، فقد وجدنا أنهم بعد ما مارسوا البربر فى تلك الحروب الرستمية والإدريسية ، أدركوا أن لا جدوى من محاربة هؤلاء ، وأنه من الأجدى عليهم أن يسالموهم وينصرفوا لإصلاح شؤونهم الداخلية ، فعملوا على ذلك ، ووطنوا العزم على إقرار دولتهم التى صارت تستقل عن بغداد شيئاً فشيئاً ، وتخلل ذلك بعض الفتن داخل البيت المالك ، ولكن هذه القلاقل لم يطل بها الأمد ، وسرعان ما رجعت الأمور إلى نصابها واستجد الأغالبة نشاطهم ، وثبتوا دعائم مملكتهم من جديد ، ثم امتدت أنظارهم إلى البحار — كما سبق — ، وصاروا يداهمون بأساطيلهم القوية بعض الجزر ، فابتدأوا بجزيرة صقلية ، ثم سردانية ، وكورسيكة . وكان ذلك من غير شك مما يبعث السرور وينال الرضى من جانب العباسيين الذين كانوا حتى ذلك الحين على صلة متينة بهم ، وكانت حروبهم لا تنقطع ضد « البيزنطيين »[٤] .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، وزمباور ، وفروخى ، والهلالى الذى جعل وفاته ما بين ٢٢٧ و ٢٩ بناء على أنه تولى سنة ١٨٨ ، ولكن ذلك مخالف لما بيدنا من النصوص ، كما يخالفه ما فى « تاريخ إسبانيا المسلمة » من أنه كان على صلة بمحمد بن عبد الرحمن الثانى . ومعلوم أن عبد الرحمن هذا توفى سنة ٢٣٨ . أما ابن الصغير مؤرخ هذه الدولة فلم يذكر سنة وفاته .

(٢) وهى غير العباسية التى بناها ابراهيم قرب القيروان نسبة لبنى العباس . ابن خلدون الجزء الرابع ص ١٩٦ و ٢٠٠ .

(٣) ابن خلدون الجزء الرابع ص ٢٠٠ ، وفى البلاذرى وابن الأثير الجزء السادس ص ٣٦٩ أن ذلك كان سنة ٢٢٩ .

(٤) منذ الرشيد فالمأمون فالمعتصم الذى ابتدأ غزو صقلية فى أول خلافته . ابن خلدون الجزء السادس ص ١٩٨ .

على حين كانت جماعة من الأندلسيين قد احتلوا جزيرة « كريت » بعد ما هاجروا من الأندلس على أثر حادثة الربض ثم ثورة الاسكندرية[١] .

وكانت « كريت » منذ أن افتتحت على عهد معاوية ما تزال خاضعة لولاة مصر إلا أنها لم تنل من جانبهم كبير اهتمام[٢] .

هذه الحوادث جعلت ملوك الأندلس يهتمون بموقف الأغالبة الذى سيطروا به على البحر الأبيض المتوسط ، خصوصاً وقد أحسوا بأن خطرهم صار يقترب إلى جزر البليار التى كانت آنذاك تحت حمايتهم[٣] ، لهذا وجدنا الحكم يواصل الأدارسة فيبعث وفـداً إلى المولى إدريس الثانى يهنئه باعتلائه على العرش ، ويفاتحه فى أن يكونا يداً واحدة على خصومهم الأغالبة الذين بدأت معاركهم تحتدم بينهم وبين المولى إدريس ، إلا أن الربضيين الذين هاجروا إليه كانوا سبباً فى فتور هذه العلاقة ، كما كان القرويون الذين هاجروا إليه مما زاد فى توتر هذه العلاقـة بينه وبين الأغالبة[٤] ، ولكن بموت الحكم سنة ٢٠٦ والمولى إدريس سنة ٢١٣ رجعت العلاقة الإدريسية الأندلسية من جديد تتوطد بين الطرفين ، فعمل عبد الرحمن الثـانى — بكل نشاط — على إحكام علاقاته

---

(١) ثار بها ١٥٠٠٠ من الأندلسيين ثم توجهوا إلى كريت بعد ما أقاموا ١١ سنة بالاسكندرية . Scott الجزء الأول ص ١٦٧ ، وابن الخطيب فى الأعمال ص ١٦ القسم الثانى ، ولقد ذكر كثير من المؤرخين سبب هذه الثورة وكلهم مجمعون على أن سببهـا كان لشجار حدث بين أندلسى وجزار كما يقص ذلك ابن الخطيب فى المرجع السالف .

(٢) لدرجة أن ابن سعيد يقول : كانت حينئذ — لما احتلها الأندلسيون — خالية فعمروها. المغرب الجزء الأول ص ٤٢ .

(٣) البيان المغرب الجزء الثـانى ص ١٣٢ وما بعدها — وذلك أيام عبد الرحمن الثانى — وصفحة ١٢٤ من الجزء الأول وكتاب المغرب الجزء الثانى ص ٤٩ ، وأعمال الأعلام القسم الثانى ص ١٩ وكتاب « History of the Moorish Empire in Europe » لمؤلفه Scott الجزء الأول ص٤٧٢ .

(٤) بسبب هجرة هؤلاء وأولئك بنى إدريس الثـاني مدينة فاس وشطرها هؤلاء فاختص أهل الأندلس بشطرها واختص القرويون بالآخر (فى مواصلة الحكم لإدريس انظر Scott ، ص ٤٥٦) .

بينه وبين إمارات المغرب من إدريسية ، وسجلماسية ، وبرغواطية ، ونكورية ، ثم رستمية[١] ، وكان الهدف من ذلك كله إقامة سور فولاذى فى وجه الأغالبة ، الذين كانوا كما رأينا يحاولون أن يمدوا سلطانهم على الجانب الغربى من دولتهم بعد ما سيطروا على البحر بأساطيلهم ، التى لم يكن الأندلسيون يتوفرون عليها بتلك القوة ، وكانت حتى شواطىء جزيرتهم قد استهدفت لخطر النورمند[٢] فكان عليهم أن يستعدوا لخوض معارك البحار ضد الأغالبة وهؤلاء النورمند الذين تكررت إغارتهم على شواطئهم كما كان عليهم أن يحالفوا خصوم الأغالبة خصوصاً والقاطنين بالعدوة المقابلة من الأمراء عموماً ، لمواجهة الموقف الذى كان يلوح لهم بالخطر .

ثم لم يقفوا عند هذا الحد وإنما صاروا يبحثون عن تلك الوسيلة التى كان قد بحث عنها هرون الرشيد منذ زمن بعيد ، يوم أن عقد مع شرلمان Charlemagne اتفاقاً سرياً على أن يكون هذا مناوئاً للأمويين فى الأندلس[٣] ، وفعلا فقد داهم هذا عبد الرحمن الداخل[٤] ، فما كان من عبد الرحمن الثانى إلا أن وجد هذه الوسيلة ملك بزنطـــه « تيوفل » Théophile الذى عقد معه كذلك اتفاقـاً

---

(١) انظر كتاب ليفى بروفنسال « Histoire de L'Espagne Musulmane » الجزء الأول ص ٢٤٥ — ٢٤٨ .

(٢) وهم المذكورون فى كتب التاريخ العربية باسم المجوس ؛ انظر ابن عذارى ، وتاريخ اسبانية المسلمة وتاريخ الامبراطورية المغربية فى أوربة عند الكلام على عبد الرحمن الثانى . ويقول ابن الخطيب فى أعمال الأعلام : وهم الذين يسمونهم اليوم نصارى قشتالة بالانقليش وأهل المشرق بالفرنج وبالانكتير ومقر ملكهم بجزيرتين . . القسم الثانى ص ٢١ . ويقول ابن سعيد : ظهرت مراكب الأردمانيين المجوس (المغرب الجزء الأول ص ٤٩) .

(٣) انظر الجزء الأول ص ٤٠٢ وما بعدها من كتاب History of the Moorish Empire

(٤) انظر دولة الاسلام فى الأندلس للأستاذ محمد عبد الله عنان ، العصر الأول صفحة ١٧٢ وما بعدها ، ومجلة « رسالة المغرب » العدد ١٣٥ فى مقالنا « كيف أسس عبد الرحمن بن معاوية مملكته بالأندلس » .

ضد العباسيين والأغالبة الذين كانوا قد انتزعوا من مملكة بزنطة جزيرة « قبرص »[١] وتولىَ ذلك يحيي الغزال الذى بعثه إليه عبد الرحمن الثانى سنة خمس وعشرين ومائتين . فأحكم بينهما المواصلة كما يقول ابن خلدون والمقرى ، وارتفع بذلك لعبد الرحمن ذكر عند منازعيه من بنى العباس .

هذا هو السر فى أن أفلح لما أخرب مدينة العباسية سارع إلى صاحب الأندلس يخبره بذلك ، فسر هذا لذلك الخبر وبعث لأفلح بمائة ألف دينار ومكافأة له على هذا العمل الجليل[٢].

قلنا إن أفلح كان لا يقل فى دهائه عن أبيه عبد الوهاب ، وبقى أن نذكر أنه كان كذلك لا يقل فى علمه عنه إلا أنه اشتهر بالأدب أكثر من غيره ، وقد أثبت له البارونى قصيدة طويلة فى فضل العلم ومزاياه والتحريض على اكتسابه[٣]، وبعلمه استطاع أن يصير رأساً للواصلية إلى جانب كونه كذلك رأساً للاباضية والصفرية[٤] ، إلا أنه بعد ما سلك سياسة أبيه فى موادعة جيرانه أولا ومصادقة أصحاب الأندلس اتبع سياسته فى التضريب كذلك . ثم وزع قواته وجعل قيادتها فى أيدى السلالات الفارسية وكانت هذه قد شغلت أسمى المناصب وأعظمها فى الدولة . كما كانت تجارات المملكة وثرواتها بيد التجار الفرس — كما قلنا — فكون هؤلاء نوعاً من الاستقلال العنصرى داخل الجنسية الاباضية . وقد بنى أحدهم — ابن وردة — قيصرية سماها باسمه[٥] وكان له حرس خاص تحت

---

(١) ابن خلدون الجزء الرابع ص ١٣٠ ونفح الطيب ص ١٦٣ من الجزء الأول طبعة المطبعة الأميرية وكتاب : History of the Moorish Empire in Europe p. 251, 488

(٢) ابن خلدون الصفحة السابقة .

(٣) مطلع تلك القصيدة : العلم أبقى لأهل العلم آثارا * يريك أشخاصهم روحا وابكارا تاريخ الجزائر للهلالى الجزء الثانى ص ٢٨ .

(٤) يقول ابن خلدون فى الجزء السادس ص ١٢١ : « وكان أتباعه من الواصلية وحدهم ثلاثين ألفا ظواعن ساكنين بالخيام » ونحو هذا يقوله ياقوت فى معجمه الجغرافى حينما تكلم عن تاهرت .

(٥) مقال « فروخى » السالف الذكر .

رياسته إذ كان فى نفس الوقت يتمتع بسلطة رئيس الشرطة ، فكانت قيصريته ترعى من جانب هؤلاء وتقف فرقة منهم بجانب قيصريته .

وكان — وقد اعتمد على الفرس — يسترشد بآرائهم ويستمد قوته السياسية والمالية منهم ، فاستطاع بذلك أن ينعم بالهناء والرخاء فى قصره ، وشمل هذا الهناء الرعية فركنوا إلى الراحة والدعة ، وانتشر البذخ بينها والترف الذى أدى إلى انتشار حياة اللهو والمجون ، فانغمس الناس فيها ، وصارت بوادر الانحلال تلوح فى الأفق وبدأت الخصومات تضطرم بين الفرس وزناتة بالخصوص ، فعادت تلك السياسة المخطئة التى سنها له أبوه على الدولة أخيراً بالوبال ، ولم يستطع نفسه أن يستفيد منها طويلا كما استفاد أبوه لأنه كان ينقصه من أبيه تلك الشخصية القوية التى تركب الصعاب وتواجه المشاكل بعزم وقوة وصرامة . أما الدهاء والمكر وحده فكثيراً ما يأتى على صاحبه بالضد . ولهذا فإنه ما توفى حتى كان بركان الفتن قد انفجر ، وصارت ملوك هذه الدولة لعبة فى يد المتآمرين ، وعادت الخصومات القبلية تنبعث من جديد ، ويقوى بعضها على بعض فتقام الملوك عن عروشها ، ثم تمهد هذه العروش لآخرين يستوون عليها وقد أسندتهم قبيلة أو أخرى دون أن يكونوا ذوى مواهب ذاتية ، يستطيعون بها أن يسيطروا على المواقف ، ويصمدوا للحوادث (١) .

---

(١) ولم يكف ذلك وانما وجدنا هذه العائلة تنشق على نفسها لأول مرة — وهذا طبيعى فى مثل هذه الظروف ، فتقم الحروب بينهم وتتوزع المملكة فيما بينهم ، ويتحكم الناس فى مصيرهم بواسطة التحكيم الذى كان سلفهم فيما قبل قد أنكروه على علي ومعاوية وكان هو السبب فى شقهم لعصا الطاعات وحملهم لواء العصيان طيلة قرنين أو يزيد من الزمان ، وكانت من نتائج إنكارهم هذا — كما رأينا — أن تأسست هذه الإمارات المتعددة مستقلة عن الخلافة العظمى ، كما تأسست أخر فى الشرق ، وكانت من عواقب هذه وتلك أن ظهرت عقائد حاول أصحابها أن تكون ديانات على استقلال مثل إمارة البرغواطيين فى بسيط « تامسنا » بالمغرب الأقصى ، التى نشأت عن الصفرية وانتشارها فى هذه البلاد ، وظلت هذه العقيدة الزائغة تضطرب فى طول البلاد وعرضها زهاء أربعة قرون ، لم تخمد فيها شوكة أصحابها إلى أن قضى عليها يوسف بن تاشفين ، قضاء صوريا فى الحقيقة ، ولهذا نجد فيما بعد ذكر لهؤلاء البرغواطيين ، كما نجد حملات تجرد إليهم للتخلص من شيعتهم .

توفى أبو سعيد ميمون الأفلح سنة ٢٥٨[١] فقام بالأمر ابنه أبو بكر ، وكان ميالا إلى الراحة مولعاً بالأدب ، تاركاً لأخيه أبى اليقظان وصهره محمد بن عرفة أمر تسيير الدولة ، فكانت النتيجة أن رؤساء الحكومة لم يرضوا بذلك ، وعملوا على اغتياله بعد ما فتنوا عليه فتنة أخرجته من « تاهرت » ، فاستولى عليها محمد بن مسالة الهوارى بعد حروب شديدة . وكان منشأ هذه الفتن أن بطانة أبى بكر لما نفسوا على صهره ابن عرفة مكانته من الدولة أوعزوا إلى أبى بكر أن يتخلص منه متذرعين بتهمته بالخيانة فلما كانا فى صلاة المغرب طعنه خادم لأبى بكر ، فاستفظع الناس هذه الفعلة ، وثاروا بأبى بكر ، وقامت الحرب بين أنصار الحكومة وبين خصومها ، وكان بجانبه نفوسة والفرس ، فتغلب عليهم خصوم الحكومة ، وتفرقوا فى أقاصى البلاد ، ثم استولى ابن مسالة على تاهرت ، فأجلى لواتة[٢] عن المدينة ، فاجتمعت على أبى اليقظان ، فذهب بهم مع شيعته إلى تاهرت ، ثم انضمت إليه نفوسة طرابلس ، فتقوى بها وحاصر المدينة التى فتحت له أبوابها بعد سبع سنين . أما أبو بكر فقد فقد إمامته التى لم يمكث فيها إلا سنتين كما استظهر البارونى[٣].

وبعد تولى أخوه أبو اليقظان محمد بن الأفلح[٤] وكان أيام أبيه قد ذهب إلى الشرق حاجاً فقبض عليه العباسيون وسجنه الواثق مع أخيه المتوكل ، فلما

---

(١) معجم الأنساب للمستشرق «زامباور» ودائرة المعارف الاسلامية الفرنسية عند الكلام على الرستميين . أما الهلالى فيجعلها سنة ٢٣٨ .

(٢) يقص ابن الصغير هذه القصة فيقول : « لما نزل بالعجم ونفوسة ما نزل تفرقوا فى أقاصى البلاد ، فنزلت العجم بموضع يقال له تابغليت وهى على مرحلتين من مدينة « تاهرت » ونزلت الرستمية ومن لف لفها باسكيدال وبه أبو اليقظان . وهو مجمع الاباضية قبلة « تاهرت » على يوم أو أزيد قليلا . ونزلت نفوسة بقلعة مانعة يقال لها اليوم قلعة نفوسة .

(٣) من رجال القرن العشرين توفى بالهند سنة ١٩٤٠ . وفى دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية لا ينص إلا على تاريخ توليته وكذلك « زامباور» فى كتابه معجم الأنساب .

(٤) فى دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية ومعجم الأنساب لم ينص إلا على نهاية إمامته وهى سنة ٢٨١ ولكن الهلالى ينص على أن توليته كانت سنة ٢٤١ بناء على أن أخاه تولى سنة ٢٣٨ ولم يمكث فى إمامته إلا سنتين كما استظهر البارونى .

آل الأمر إلى المتوكل سرحه وأحسن إليه ، فعاد إلى تاهرت ، وفى السنة التى بويع فيها كان الثوار قد تمكنوا من تاهرت فزحف لاستردادها وحاصرها سبع سنوات استطاع فى نهايتها أن يطرد الثوار منها وأن يتمكن من إعادة الأمور إلى نصابها ، وظل فى حكمه أربعين سنة[١] كان فيها مثلا للعلماء الزهاد فافتتنت به نفوسة الجبل ، وصاروا يعتقدون فيه اعتقادات ساعدته على أن يحتفظ بصيانة الدولة ، فمكث فى قداسته يسير الأمور إلى أن توفى سنة ٢٨١ بعد ما عمر مائة سنة[٢] ، ثم بويع ابنه أبو حاتم يوسف ، وكان كثير المروءة واسع الاحسان ولكن الأمور اضطربت عليه فأخرج من المدينة ثم عاد إليها وائتمر به بعض قرابته فقتلوه سنة ٢٩٤[٣]. وكان العالم بكر بن حماد ممن أوضعوا فى الفتنة أول الأمر ولكنه اعتذر إليه بقصيدة بعد ما رجع إلى تاهرت[٤] ، كما كان عمه

---

(١) كما يذكر ابن الصغير الذى كان حاضرا فى وفاته ، والدكتور «فروخى» . ولكن تبقى هناك مشكلة وهى أنه فى دائرة المعارف الإسلامية وفى معجم الأنساب نجد أن أخاه بويع سنة ٢٥٨ وعليه فيكون قد حكم نحو عشرين سنة ، كما ان هناك مشكلة أخرى وهى أن ابن القوطية يذكر فى ص ٩١ ، ٩٢ أن عمر بن حفصون خشى لما كان بتاهرت أن يتقبض عليه بنو اليقظان مع أن عمر هذا ثار سنة ٢٧١ ، فهل معنى هذا أن بنى اليقظان كانوا مالكى تاهرت على عهد أبيهم ؟

(٢) وكان أبو اليقظان على صلة طيبة مع محمد بن عبد الرحمن الثانى كما فى كتاب « تاريخ اسبانيا المسلمة » الجزء الأول ص ٢٤٥ ويقول ابن القوطية فى ص ٩٢ إن ملوك تاهرت كان ولاؤهم لبنى أمية ، ويذكر ذلك بمناسبة الكلام على عمر بن حفصون لما كان بتاهرت ثم ثار على محمد هذا . كما أن ابن الخطيب قال فى حقه : وتخدمه ملوك البلاد المغربية واعترفت بطاعته بتاهرت وسجلماسة ، أعمال الأعلام القسم الثانى ص ٢٤ . نشر بروفنصال .

(٣) تاريخ الهلالى الجزء الثانى صفحة ٢٤ ، أما دائرة المعارف الاسلامية فلم تنص على سنة وفاته .

(٤) يقول فى مطلعها :

ومؤنسة لى بالعراق تركتها ... وغصن شبابى فى الغصون نضير
فقالت كما قال النواسى قبلها ... عزيز علينا أن نراك تسير
فقلت جفانى يوسف بن محمد ... فطال على الليل وهو قصير
أبا حاتم ما كان ما كان بغضة ... ولكن أتت بعد الأمور أمور
فاكرهنى قوم خشيت عقابهم ... فداريتهم والدائرات تدور
وأكرم عفو يوثر الناس أمره ... إذا ما عفا الانسان وهو قدير

انظر مجلة « Tamuda » العدد الأخير لسنة ٥٦ .

يعقوب نازعه الحكم . وكان قد ارتحل إلى زواغة بعد ما بويع ابن أخيه أبو حاتم ، فلما أخرج هذا من المدينة استقدمه أهلها وبايعوه ، فحارب ابن أخيه ، ثم توقف عنه بتدخل أهل الفضل بينهما ، فعاد أبو حاتم يستألف الناس فأعادوه إلى المدينة التى غادرها يعقوب إلى زواغة مرة أخرى بعد ما قام أميراً أربع سنوات ، وكان بعيد الهمة نزيه النفس عاش حتى استولى الشيعة على تاهرت فارتحل إلى برقة وعرض عليه أهلها بيعتهم فقال لهم : « لا يستتر الجمل بالغنم » ثم توجه إلى مصر نهائياً بعد ما أقام بجبال نفوسة وبإفريقية ضارباً فى البلاد[١] ، ولقد حملت هذه الدولة مشعلا عظيما للحضارة والعلم فى الشمال الافريقى فكانت تلى القيروان فى ذلك[٢] .

لما قتل أبو حاتم بويع أخوه اليقظان بن أبى اليقظان سنة ٢٩٤ ولم يتمتع بالملك طويلا ، فبقى مدة عامين وأمره فى اضطراب إلى أن قتله الشيعة فى طائفة من أسرته سنة ٢٩٦ ، وبذلك انطوت آخر صفحة للرستميين كدولة ثم انتشرت فلولهم فى البلاد[٣] .

ولما كانت هذه المملكة تلفظ نفسها تحت ضربات العبيديين القاسية كانت جماعة النكار تلتف حول زعيمها أبى اليزيد الملقب « صاحب الحمار » الذى حاول أن يصد العبيديين وأن يعيد إلى الاباضيين دولتهم الفتية ولكنه لم يوفق فى هذا ، فقبض عليه بعد معارك دامية ، ثم سلخ جلده وحشى تبناً ووضع فى

---

(١) انظر مقال « فروخى » الذى يجعله آخر الرستميين كما صنع صاحب معجم الأنساب الذى اعتمد على دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية فى ذلك وهذه تجعل يعقوب بن الافلح قد أعيد إلى العرش بعد مقتل أبى حاتم سنة ٢٩٤ ولو أنها لم تنص على نهاية أبى حاتم بتاريخ معين .

(٢) انظر Ch. Andre Julien فى كتابه : « Histoire de L'Afrique du Nord » عند كلامه على الاباضية ومقال « فروخى » والمقال الذى نشرناه فى العددين المذكورين من مجلة « لسان الدين » وتاريخ الجزائر للهلالى الجزء الثانى .

(٣) الهلالى الجزء الثانى ص ٢٦ .

قفص وطيف به[١] ، كما فعل « بأبى حمارة » أيام المولى عبد الحفيظ ، واتعظ يعقوب بما حصل للنكار ، فسلم بالأمر الواقع وهاجر إلى الشرق كما تقدم .

لقد انطوت صفحة مملكة الاباضية الرستمية ، ولكن ليس معنى هذا أن هذه السلالة قد انقضى أمرها من شمال افريقيا ، وإنما وجدناها عند المطاردة العبيدية ، تتجه إلى الشرق وتتركز فى واحة « ورجلة » ، وظلت فى نشاطها هناك إلى أن داهمتها جيوش « المرابطين[٢] » ، فهاجرت مقرها ، ثم استقرت فى « مزاب » ، فشمرت فيها عن سواعدها وحفرت الآبار وبنت الدور وجعلت تلك الأماكن واحات خصيبة ، ولم يمض وقت طويل حتى كانت تلك الواحات تتخذ لنفسها صبغة القرى العظيمة فسميت فيما بعد باسم « سبع مدن »[٣] .

وفى أكثر من موضع نجد ابن خلدون يتحدث عنهم ويخبر بأنهم ما زالوا قائمين فى بعض الجهات فى شبه استقلال ، نعم إنهم ما زالوا حتى عهدنا هذا بالرغم مما أصيبوا به من كوارث وما استهدفوا إليه من مطاردات ، وفى القرن التاسع كان المسافر يسميهم « المرتجين المحمديين » ، ويسجل لهم أن « الأمانة هى الطابع الخلقى فى تجارتهم والإيمان يجعل من لهجتهم ومن حياتهم الاجتماعية مغزى نبيلا »[٤]

---

(١) ابن خلدون الجزء الرابع ص ٣١ و ٤٠ والجزء السادس ص ١١٧ ، ١٤١ والجزء السابع فى الصفحات : ١٠ و ١١ ١٤ و ١٦ .

(٢) مقال « فروخى » .

(٣) المقال السابق ، وجغرافية الجزائر لأحمد المدني الذى يذكر هذه السبع المدن كالآتى : غرداية (العاصمة) . بنى يزقن ، العطف ، القرارة ، بنورة ، مليكة ، بالريان وفى جنوبها واحات عامرة بديعة منها « وركلة » المذكورة . ويقول صاحب الجغرافية المذكورة عند كلامه على « مزاب » أنها فى الصحراء الشرقية من عمالة الجزائر ، وأهلها حتى الآن ما زالوا اباضين .

(٤) الدكتور Napegyi فى كتابه النشور باسم «Ghardaia, Ninety Days in the Desert» سنة ١٨٧١ .

وبالرغم مما تعرضت له هذه الجماعة من اعتوار الغارات الإفرنسية والايطالية عليها فإنها ما زالت — كما قلنا — تحافظ على مراكزها الاجتماعية الخاصة ، وتحتفظ بملامحها الجنسية سواء فى « مزاب » أو فى جبل « نفوسة » . . . وقد خرجت من تلك الحروب التى كانت تكتسح بلادها — فى الحرب العالية الأخيرة — قوية عزيزة ، فاستقلت « طرابلس » ورجعت كرامة جبل نفوسة إلى أصحابه ، وتحركت الجزائر المجاهدة فى ذلك الجبل الذى يحفظ له التاريخ كثيراً من مواقف النخوة والإباء ، وقد اعتزت به بعض فلول العبيديين من رستمية ، كما كان معتزاً به أولئك النكار منذ عهد عبد الوهاب إلى أن خاضوا معاركهم الحاسمة ضد العبيديين ، وهم اليوم يخوضون هذه المعارك الطاحنة ضد الفرنسيين المعتدين الغاصبين ، بارك الله فى جهادهم وثبت أقدام رجالهم الأبطال ، حتى نرى فى القريب العاجل — بحول الله وقوته — أمة الجزائر المجـــاهدة قد نالت سيادتها الكاملة وتخلصت من نير العبودية الظالمة . . .

محمد بن تاويت